قلعة بني راشد ودورها في الصراع العثماني الإسباني خلال القرن16م

Bani Rashid Castle and its role in the Spanish–Ottoman conflict in the 16th century AD

سحابات زهيرة *

جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس

zahirasehabat@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/01/20 تاريخ القبول 2023/01/30 تاريخ النشر 2023/02/14

ملخص: عرف المغرب الأوسط مع مطلع القرن 16م صراعات عسكرية ودينية تزعمتها القوتين العثمانية والإسبانية، هذه الأخيرة ومنذ احتلالها للسواحل الجزائرية سارعت لربط علاقات مع المملكة الزيانية وملكها أبا حمو الثالث، ولكن سكان تلمسان لم يرضو بحكمه فنراهم يستنجدون بعروج الذي لبى النداء ولكي يكون بمقربة من المملكة ولكي تسهل عليه مهمته نراه يتخذ من قلعة بني راشد التي كانت تشكل للإسبان مورد اقتصادي هام، حيث وضع فيها حامية عسكرية، وبالتالي لعبت دورا هاما في الصراع العثماني الإسباني، لأنها عرفت حصارا عنيفا من طرف الإسبان تأديبا لها، ولكن لن يفرط فيها خير الدين حيث سعى على أن تصبح حامية عثمانية.

الكلمات المفتاحية: قلعة بني راشد؛ عروج؛ تلمسان؛ الإسبان؛ الصراع.

* المؤلف المراسل

Abstract: The central Maghreb experienced at the beginning of the 16th century of our era military and religious conflicts led by the Ottoman and Spanish powers. The latter, since its occupation of the Algerian coasts, hastened to establish relations with the Zayani kingdom and its king. , Aba Hammou III. His task is made easier for him, we see him taking the castle of Bani Rashid, which was an important economic resource for the Spaniards, since he placed a military garrison there, and thus played an important role in the Ottoman-Spanish conflict, because he saw a violent siege by the Spanish as punishment, but Khair ad-Din would not overlook it as it sought to become an Ottoman garrison.
key words: castle of Bani Rashid; Arouge; Tlemcen; Spaniards ; conflict.

مقدّمة:

عرف الفضاء المغاربي مع نهاية القرن15م وبداية القرن16م تحولات وصراعات سياسية وعسكرية ودينية تزعمتها القوتين الدولة العثمانية الحاملة للراية الإسلامية من جهة الاسبانية المسيحية من جهة أخرى، وهذا بعد أن تمكن الإسبان من القضاء على مملكة غرناطة في الأندلس عام 1492م، فتفرغوا لمنطقة المغرب الإسلامي الذي كان يعيش حالة من التفكك والتجزؤ بعد سقوط دولة الموحدين، وبما أن هذه المناطق كانت متناحرة فيما بينها جعلها عرضة للغزو الإسباني، مما مهدها أن تكون خارطة العبور للإستيلاء على البحر المتوسط، وخاصة بعد ظهور الإخوة بربروسا ينشطون في الحوض الغربي للمتوسط، ولهذا نراه يستغل الظروف العامة للمغرب الأوسط الذي سيكون حلبة للصراع العثماني الإسباني، وراح يستولي على المدن الساحلية الواحدة تلو الأخرى، كما تحالفوا مع أبا حمو الثالث ملك المملكة الزيانية آنذاك، ولكن سكان تلمسان لم يرضوا بالوضع وراحوا يستنجدون بالإخوة بربروسا، الذين سوف يتخذون من قلعة بني راشد الحامية العسكرية بحكم القرب الجغرافي لمملكة تلمسان، والتي سيكون لها دور كبير في تغيير الأحداث وتفاعلها خاصة وأنها ستكون حلبة صراع بين العثمانيين والإسبانيين،

ولتجلية هذا الموضوع نطرح جملة من التساؤلات: فيما يشمل المجال الجغرافي لقلعة بني راشد؟ وما الدور الذي أدته قلعة بني راشد في الصراع العثماني الإسباني؟

ولقد اعتمدنا على المنهج الوصفي التاريخي لما يتناسب مع طبيعة الموضوع من خلال وصفنا للقلعة وللأحداث التاريخية، وتكمن أهمية الدراسة في إبراز الدور الجغراسياسي لقلعة بني راشد أثناء الصراع العثماني الإسباني باعتبارها حامية عثمانية وتقرب من مملكة تلمسان التي تصارع الإسبان.

1- جغرافية قلعة بني راشد:

تكلم الحسن الوزان عن مجالها فقال:« يمتد هذا الإقليم على طول نحو 50 ميلا من الشرق إلى الغرب وعلى عرض يقرب من 25 ميلا، هضبة الواقعة جنوبا كلها سهول والواقعة شمالا كلها تقريبا مرتفعات، لكن أراضيها معا صالحة للزراعة»[1]، وقال عنها الحميري صاحب الروض المعطار:« ويسكن فحص سيرات قبائل كثيرة من البربر ومطغرة وغيرها من قبائل زناتة»[2]، حيث كان سكانها بربر من قبيلة مقاطع من سلالة بني راشد وهم على فرقتين أهل الجبال ويسكنون القرى ويشتغلون بزراعة الحقول والكروم أما غيرهم فيجوبون الآفاق كما يفعل الأعراب وهؤلاء أعظم غنى وشهرة وأكثر خيلا وجمالا[3].

لها قرى عديدة أهمها إثنتان، الأولى تدعى قلعة هوارة حيث قال عنها صاحب الاستبصار: «وهي قلعة منيعة في جبل خصيب فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع وأعناب وتحها فصل طوله نحو40 ميلا، يشقه نهر سيرات ويسقى أكثر أرضه ويسمى ذلك الفحص بإسم النهر، ونهر سيرات نهر كبير مشهور يقع في البحر عند مدينة أزواوا وهي مدينة قديمة رومية وفحص سيرات يسكنه قبائل كثيرة من البربر ومطغرة وغيرهم من قبائل زناتة»[4]، وتسمى الثانية معسكر وبها يقوم خليفة الملك مع فرسانه، يعقد فيها سوق كل يوم خميس يباع فيه عدد وافر من الماشية والحبوب والزيت والعسل، وكثير من منتوجات البلاد وأشياء أخرى أقل قيمة كالحبار والسروج والأعنة وحاجيات الخيل[5].

2- ظهور الإخوة بربروسا في الحوض الغربي للبحر المتوسط:

بدأ نجم الإخوة بربروسا[6] يسطع مع بدايات القرن16م في عرض البحر الأبيض المتوسط نتيجة انتصاراتهم المتتالية على الإسبان، وكان عروج أخيهم الأكبر من أكبر الغزاة الذي سوف يكون له دور كبير في تحرير المدن الجزائرية فيما بعد، والإخوة بربروسا هم أبناء يعقوب بن يوسف كان يقطن بجزيرة مدلي ((متيلان)) في أرخبيل اليوناني [7] تزوج بنت من النصاري، ولقد اشتهر والدهم بالفخار[8] ثم صار جنديا في حضرة السلطان الغازي محمد خان الثاني[9] وله أربعة أولاد وهم عروج، خير الدين وإسحاق وإلياس، ولقد أظهر أخيهم الأكبر أي عروج مقدرة كبيرة خلال عمله على متن سفنه القراصنة و كان يخوض حربا ثأرية ضد فرسان القديس يوحنا الذين كانوا قد استرقوه[10]، و في عام 1504 استقر عروج في جزيرة جربة جنوب شرق تونس ولحق به أخواه خير الدين وإسحاق، واتفق مع الأمير الحفصي أبي عبد الله محمد على أن يسمح لهم بجعل جربة مركزا لأسطولهما ويفتح كل الموانئ التونسية مقابل خمس الغنائم[11]،ومن هنا قرر الإخوة الأتراك مزاحمة ومهاجمة الإسبان بعدما استنجد به سكان بجاية، وعلى هذا الأساس بدأت عمليات التحرير تتسع وتشمل أغلب السواحل والمدن الجزائرية، والتي وصلت أعقاب الغرب الجزائري.

ولقد برزت الأهمية العسكرية لقلعة بني راشد في مستهلّ القرن 16م، وتحديدا خلال حرب المواقع التّي دارت بين الزّيانيين الذين كانت تحت نفوذهم الإداري منذ القرن 13م والذين كانت تربطهم علاقات تحالف وطيدة مع أهل إقليم بني راشد على مدار قرون طويلة، إذا ما استثنيت تلك الأزمات الظّرفية العابرة بين القبيلتين من حين لآخر، والقوّات الإسبانية المرابطة بالمرسى الكبير، ومدينة وهران التّي لم تتأخّر بدورها عن عقد اتفاقيات عرفية مع بني راشد لضمان تموينها بالحبوب واللّحوم، ومختلف المنتجات المحلّية التّي يحتاجونها في حياتهم اليومية منذ استقرارهم بالمنطقة عام (1505)م والعثمانيون

الذين استنجد بهم أعيان مدينة تلمسان لقهر السّلطان أبي حمّو الثالث الذي غصب العرش من ابن أخيه الصّغير أبي زيان[12].

3- قلعة بني راشد ومجريات الصراع العثماني الإسباني:

لما كان أمير تنس الزياني مساندا وداعما للإسبان قرر عروج الإنتقام منه وإخضاع مدينته، ولقد جهز هذا الأخير قوات كبيرة حيث كان على رأس ألف (1000)من الأتراك و خمسمائة (500) من الأندلسيين واتجه نحو تنس[13]، حيث اقتحمها في شهر جوان1517م وإفتكها منه وقتله وطرد الإسبان منها، ومن ثم قسم مملكته الجديدة إلى قسمين قسم شرقي مركزه دلس ويشرف عليه أخوه خير الدين والقسم الغربي مركزه مدينة الجزائر ويحكمه هو نفسه أي عروج الذي قام ينظم أموره في تنس، وفي هذه الأثناء جاءه وفد من سكان مدينة تلمسان ليشكو له أوضاع بلادهم السيئة وتهديد الإسبان بإحتلال مدينتهم بسبب اختلاف أمراء بني زيان على العرش والسلطة[14].

حيث أدى الصراع السلطوي في مملكة تلمسان إلى إقدام أبو حمو الثالث على سجن ابن أخيه أبا زيان واعترف بحماية الإسبان لبلده، وبعدما سمع عروج كل هذه الأخبار عزم على التوجه إلى تلمسان، حيث استخلف أخاه خير الدين على مدينة الجزائر وأحوازها و اتجه هو إلى تلمسان ومر على قلعة بني راشد قرب معسكر فوضع بها حامية تركية كبيرة، وهذا من أجل حفظ خط رجعته وقدرت القوات الموضوعة فيها بستمائة (600) تركي تحت قيادة أخيه إسحاق لتحمي ظهره وواصل هو الزحف إلى تلمسان واستطاع بسهولة التغلب على أبو حمو الثالث المتآمر وحشوده ودخل إلى المدينة وأخرج أبا زيان من السجن وأجلسه على عرشه من جديد[15].

وما إن سيطر عروج على الوضع في مملكة تلمسان منع أهل القلعة من إمداد الإسبان بالمؤن، وهي في واقع الأمر سياسة أتت أُكْلها، كما يمكن أن يستنبط من التقارير العسكرية، التّي كان يبعث بها قائد القوّات العسكرية الإسبانية بمدينة وهران إلى

بلاط الملك الإسباني، حيث ذكر في بعض مراسلاته بأنّ جيشه يقتات منذ شهرين على الكعك اليابس، دون شيء آخر بسبب المقاطعة الاقتصادية له من طرف بني راشد، وطلب التّمويل من هناك بأسرع ما يمكن[16]، فضاقت أحوال النصارى بسبب ذلك، وفي هذا الوقت كان أبو حمو الثالث الذي فر إلى فاس وأقام به قد راسل النصارى قائلا لهم: "انظروا ما حل بكم حين انقطعت دولتنا عنكم وتمكنت منها الأتراك كيف قطعوا عنكم الميرة من القلعة وغيرها فلو كنتم أعنتموني على قتال عروج وأمددتموني بالمال والرجال ما صار أمركم إلى هذا، فانظروا الآن في هذا الأمر وتداركوا الحال هذا قبل أن يمتد طمع هذا الرجل إلى أخذ المدينة من أيديكم ..." [17]، ولما سمع النصارى هذه المقابلة من أبو حمو الثالث أجابوه قائلين: "أنت لم تستعن بنا ولم تطلب منا مددا ولو فعلت لبذلنا أنفسنا في نظرك و الآن نحن معك نمدك بما تريد، فتوجه إلى عدوك وقاتله، فكل ما تحتاج إليه فنحن مكلفون ."[18]

وبعدما عزز أبو حمو الثالث قوته بمساعدة الإسبان حكام وهران آنذاك الذي اقنع حكومتها بضرورة إرسال عشرة آلاف جندي لاسترجاع مملكة تلمسان والتي وافقت على طلبه، حيث صحب أبو حمو الثالث هذه القوة إلى قلعة بني راشد ومعه بقايا المخلصين لبني زيان وبعض السكان الذين ضجوا على سلوك الأتراك حيث فرضوا حصارا على القلعة وقد قرر إسحاق مواجهتهم والصمود في وجههم، ورغم تحقيقه بعض الإنتصارات إلا أنه رأى من الضروري ترك القلعة لهم مقابل السماح له ومن معه بالخروج منها والذهاب إلى تلمسان، ولقد تم الاتفاق على هذا الأساس[19]، إلا أنهم نقضوا بهذا الإتفاق حيث قتل إسحاق ومن معه أثناء انسحابهم بعدما وقع قتال عظيم بينهم، واستولى أبو حمو على القلعة، وتم ذلك في نهاية شهر جانفي 1518م أواخر عام 920هـ[20].

بعد هذا النجاح توجه أبو حمو الثالث بجيشه ومن معه من العرب والنصارى بقيادة **مارتان دارغوت** Martin Dargot إلى تلمسان فحاصروها **26** يوما وعند ذلك خرج عروج وجماعته إليهم فلم يزل يقاتلهم حتى استشهدوا جميعا[21]، في جبل بني يزناسن[22] وحز الإسبان رأس عروج وأرسلوه إلى إسبانيا حيث طيف به معظم مدنها ومدن أوربا الأخرى، كما أرسلوا جلبابه الذي كان يلبسه إلى كنيسة القديس جيروم حيث اتخذوه شارة لهم[23].

إختلفت الآراء عن مكان موته والكيفية التي قتل بها، وترى في نفس الوقت أنه من غير الممكن أن يكون قائد ذكي مثل عروج أن يأخذ طريق الشرق التي يطوقها إسبان وهران وتلمسان من كل جانب[24]، حيث تحدث الكثير من المؤرخين عن صفاته كان من بينهم ألتر عزيز سامح في كتابه:"...له همة عالية، يرمي نفسه في المخاطر يكره تكديس الأموال، يتمتع بقدرة خارقة أثناء القتال، لم يكن سفاكا للدماء بغير حق، ولا ظالما لمن يطيعه ويحب عائلته وأصدقاءه وجنوده وخدمه وحتى الأسرى الموجودين لديه، فبادله الجميع الحب والصدق وحتى الجبناء كانوا يحترمونه ويقدرون شهامته ."[25]

وبعد استرجاع قلعة بني راشد من طرف السّلطان الزّياني الذي ترك بها حامية قبل المغادرة، إلاّ أنّ نصره لم يدم طويلا، فبقدوم خير الدين بعد ذلك عن طريق البحر، وفتح مستغانم، واصلت قوّاته الزّحف في اتجاه قلعة بني راشد، حيث فتحتها من جديد، وتعيين بها حامية عثمانية أخرى بوصفها قاعدة عثمانية دائمة، حيث أصبحت تتجدّد سنويا منذ ذلك الحين إلى غاية نهاية الفترة الحديثة مع دخول الاحتلال الفرنسي للمنطقة[26].

خاتمة:

نستنتج في الأخير جملة من النتائج والتي جاءت كالآتي:

- أن للقلعة موقع استراتيجي هام مهدها أن تكون محط أنظار الطامعين سواء من ناحية الموقع أو حتى من الجانب الاقتصادي.

- لم تكن القلعة من منأى عن التحولات الحاصلة بجوارها، فلقد وضعت إسبانيا معها اتفاقيات عرفية من أجل تموينها بالمنتوجات.
- ضرورة الإستنجاد بعروج للتخلص من الإسبان ومن أبو حمو الثالث المغتصب للحكم.
- لعبت القلعة دورا مهما في الصراع الإسباني العثماني فبعدما كانت مورد اقتصادي للإسبان، أصبحت حامية عثمانية فيما بعد بفضل عروج الذي اتخذها قاعدة عسكرية لقواته باعتبارها قريبة من مملكة تلمسان والتي سهلت له عملياته العسكرية، لكنها أضحت حلبة صراع بينهما فنراها تحاصر من طرف الإسبان أكثر من مرة بسبب قطعها للمؤن عليها.
- لم يتخل خير الدين عن قلعة بني راشد حتى بعد استشهاد أخويه عروج وإسحاق، حيث نراه يسعى لفتحها ويضع بها حامية عثمانية تتجدد سنويا إلى غاية الإحتلال الفرنسي للجزائر.

الهوامش:

[1] الحسن الوزان، وصف إفريقيا، تر :محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1983، ص 26.

[2] محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط2، 1984، بيروت، ص470.

[3] مارمول كربخال ، إفريقيا، تر: محمد حجي و محمد زينبر ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون، المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1989، ج3، ص324.

[4] مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تع: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ص ص 178، 179.

[5] الحسن الوزان، المصدر السابق، ص26.

[6] أطلق الأوروبيون على الأخوين عروج و خير الدين لقب بربروس بسبب لحية عروج و خير الدين الحمراء المائلة إلى الصفرة. ينظر: عزيز سامح ألتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، دار النهضة المغربية للطباعة و النشر ببيروت ،ط1 ،1989،ص4

[7] يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر، 2002، ص10.

[8] مجهول، الخبر عن قدوم عروج رايس الى الجزائر وقدوم أخيه خير الدين ،المكتبة الوطنية الجزائرية ،مصلحة المخطوطات رقمه 1623 ،ص 1.

[9] هو ابن السلطان مراد عام 1451 تولى الحكم من بعده، فتح القسطنطنية عام 1453م.ينظر: نزار قازان، سلاطين بني عثمان بين قتال الإخوة وفتنة الإنكشارية، ط1، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت،1992، ص 37.

[10] صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514م -1830م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، الجزائر ،ص43

[11] محمود السيد الدغيم، أضواء على البحرية الإسلامية العثمانية ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ،القاهرة، 1994، ص26.

[12] العالية بلعباس، قلعة بني راشد بغليزان دراسة أثرية، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في تخصص الآثار

الإسلامية، جامعة تلمسان، 2011-2012، ص68.

[13] عمار بن خروف، العلاقات بين الجزائر والمغرب 923هـ-1069هـ /1518م-1659م، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، جامعة دمشق، 1983، ص25.

[14] يحي بوعزيز، المرجع السابق،ص14.

[15] نفسه، ص14.

[16] العالية بلعباس، ص70.

[17] محمد بن مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ج3، ص47.

[18] محمد بن رقية التلمساني، الزهرة النيرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ع3، جويلية 1967، ص8.

[19] محمد بن مبارك الميلي، المرجع السابق،ص49.

[20] محمد بن رقية التلمساني، المصدرالسابق،ص8.

[21] نفسه، ص9.

[22] Adrien Berbrugger. «La mort du fondateur de la régence d'Alger». R.Af, n°4, 1859, p2.

[23] يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص14.

[24] De .Gramont HD ,Quel est le lieu De la mort D'Aroud'j Barbarousse ?, R.Af ,n °22 ,1878 , p p 389,390.

[25] عزيز سامح ألتر، المرجع السابق، ص68.

[26] العالية بلعباس، المرجع السابق، ص72.